التلغراف البشري

للكاتب البولندي: Boleslav Prus

بينما كانت الكونتيسة «X» في زيارة لدار الأيتام استرعى انتباهها مشهد غير مألوف. بصرت بأربعة من الصبية وقد انهمكوا في عراك حاد استخدمت فيه القبضات والأقدام.

ـ كفوا عن ذلك أيها الأولاد! أيعقل ذلك... تتشاجرون؟

ـ صاحت بهم السيدة وقد صدمها ما تمسرح أمامها من فصل غير عادي ـ ستحرمون بسبب ذلك ـ من كعكة الزنجبيل، هيا إلى الزاوية وليرفع كل منكم إحدى قدميه ووجهه إلى الحائط!

ـ لقد خطف من يدي رواية «روبنسون كروسو»! قال أحدهم مبرراً غضبه.

ـ كاذب بل هو من قام بذلك! رد آخر.

ـ أرأيتِ كيف يبدل الحقائق ـ لقد أخذها بدوره مني سيدتي! احتج ثالث.

وشرحت مسؤولة الميتم الموضوع للكونتيسة فبينت لها أنها ورغم الرقابة الصارمة فإن كثيراً من الأحداث المشابهة لذلك تقع بين آن وآخر، أما السبب في ذلك فعائد إلى كَلَفِ الأطفال بالقراءة وعدم تمكن الدار من توفير كتب لهم.

وأحست الكونتيسة بدفق حسي غريب ينداح في شراييها ليغزو فؤادها... شعور ما خالجها قبل ذلك قط. وشغل التفكير في ذلك جل وقتها على أنها جهدت في محاولة لنسيان الأمر برمته. وظل في طي النسيان حتى كانت مدعوةً يوماً إلى بيت كبير المستشارين حيث يُتَطَرَّق غالباً إلى بعض القضايا الإنسانية ذات الطابع الخيريّ فروت ما حدث في ذلك الميتم من شجار وما قدمته مسؤولة الدار تبعاً لذلك من تبرير.

وكان كبير المستشارين يصغي باهتمام إليها حتى بلغت حيّز التبرير فإذا بذات الدفق الحسي الغريب الذي غشاها يعانق أفياء روحه، ولأنه كان يتمتع بفكر غزير وقدرة على التحليل بارعة فقد اقترح المبادرة إلى موافاة دار الأيتام تلك بمجموعة من الكتب. تلك الليلة كان ضيفاً على السيد «نـ» وهذا الأخير هو من المهتمين بتقديم الخدمات الإنسانية إلى محتاجيها وما أن عرض الأمر عليه حتى لقي ترحيباً بفكرة إمداد دار الأيتام بعدد من الكتب:

ـ ولا أسهل! قال السيد ـ «نـ» سأبادر من الغد بزيارة لصحيفة «الناقل» فأدرج إعلاناً حول حاجة الملجأ إلى كتب! وكان عند وعده. هرع السيد «ز» صبيحة الغد إلى مكتب الجريدة ثملاً بنشوة العمل التطوعي الخيري فرجاهم وضع إعلان عام بالتبرع لتلك الدار البائسة بما تجود به أريحية فاعلي الخير من كتب وكان وصوله في وقت مناسب إذ إن الجريدة كانت بحاجة إلى ذلك الإعلان المتضمن سطوراً تذكي العاطفة وتؤجج مشاعر القراء وجلس المراسل الصحفي فامتشق قلماً واستدنى ورقةً دَوَّن عليها:

مجموعة أطفال في كنف الرعاية الاجتماعية يشكون من حاجةٍ ملحة إلى كتب! إنهم في عمر الزهور تذكروا لوعتهم وحرمانهم... وتلك الأرواح الظامئة إلى سلسبيل المعرفة! كتب ذلك ثم شرع يصفّر في سعادة ورضى متّخذاً إلى أحد المقاهي طريقه.

بعد ذلك ببضعة أيام... كنت في زيارة لتلك الجريدة مع صديقي مدرس الفيزياء حينما لمحت أمام باب مكتب التحرير المغلق رجلاً مهلهل الثياب متواضع الحال... كانت يداه في اتساخ أيدي منظفي المداخن، وإلى جانبه بنيّة صغيرة هزيلة رثة الملابس، بين يديها لفافة كتب قديمة.

ورفع الرجل المهزول قبعته فأجاب عن سؤالي فيما يختص بغرض الزيارة:

لقد أحضرنا سيدي تلك الكتب التي أعلنتم عن حاجة أولئك الأطفال المساكين ذوي الأرواح الظمأى إليها.

وانحنت طفلته البائسة بقدر ما أتاحت لها الأنيميا المعشَّشة في ذرات دمائها فتناولت الكتب منها وناولتها بدوري صبي المكتب ما اسمك سيدي؟ سألت فاعل الخير.

ـ لكن ما حاجتك إلى معرفة ذلك سيدي؟ أجاب وسُحُبُ الحيرة والإحراج تخيّم على صفحة وجهه البائس اليائس.

ـ يتحتم أن ندرج اسم المتبرع!

ـ ليس هذا بذي أهمية تذكر ـ أرجوك سيدي ـ لست سوى عامل بسيط في مصنع للقبعات ـ ليس ذلك ضروريًا. وذهب تتبعه ابنته الناحلة المسكينة.

ولست أدري لم خطرت لي فكرة إرسال البرقيات بطريقة جديدة... قد يكون وجود صديقي مدرس الفيزياء هو ما ولّد ذلك الخاطر. لاح الميتم ببالي كمحطة التلغراف الرئيسة، فيما بدا العامل في مصنع القبعات كمحطة الاستقبال وحالما يعطى الأول إشارة انتبه! ـ يردّ الثاني في الحال...، يطلب أحدهم فيلبي الآخر. فأما نحن ـ البقية أقصد ـ فأعمدة التلغراف.